مفهوم الشعر ونقده عند الرافعي

قراءة في مجهوده النقدي بين المنجز و المأمول

أ.عبد القادر كباس

ط.د. المركز الجامعي– تيسمسيلت – الجزائر

تحت إشراف: الدكتور بشير دردار

ملخص:

إنّ الكتاباتِ الكثيرةَ الّتي أرّخت للحركة النّقدية في أدبنا العربيّ خلالَ النّصف الأوّل من القرن الماضِي، لم تهتم كثيراً بإسهاماتِ مصطفى صادق الرّافعي–رحمه اللهُ- في تلك الحركةِ، فكان هذا التقصير من الأسباب الّتي دعتنا إلى البحثِ في كتاباتِ الرّافعي النّقدية، وهدفنا من ذلك هو الكشف عن شخص الرافعي الناقد. فعرضنا لفلسفتة في الشعر وعناصره، من أفكار ولغة شعرية ومسألة الوزن والقافية، وصفات الشاعر، ثم بحثنا في شروط نقد وناقد الشعر عند الرافعي. متّبعين في ذلك منهجا استقرائيا تحليليا.

وتكمن أهمية البحث في نقد الرافعي عامة، وفي تناوله لمفهوم الشعر على الخصوص، في أنها محاولة للإجابة عن هذا التساؤل: هل تكفي الثقافة التراثية والاطلاع على ما يُترجَم إلى اللغة العربية لتكوين ناقد عصري؟. ما هي مرجعية الرافعي في نقده؟، وما هي أدواته في ذلك؟، وعلامَ كان يراهن؟، ثم ما هو موقفه من الآخر؟، و قبل الإجابة. علينا ألاّ نطالب الرافعي بمفهومات عصرنا هذا، وإنما هو مرتهن لمفهومات النقد العربي الحديث في تلك الحقبة التي عاشها.

الكلمات المفتاحية: الشعر، الشاعر، اللغة الشعرية، البيان الفني، الذوق، الرافعي.

Abstract :

The several writings which dated the critical movement in our Arabic literature during the first half of the previous century; didn't interest a lot in Mustapha Sadek al-Rafi'i's contributions in that trend, that neglection was one of the reasons which motivated us to search in al-Rafi'i critical writings, and our aim, then, is to discover the person of al-Rafi'i, as a critic, his philosophy in poetry in addition to his ideas, poetic language and rhyme .The importance of this research lies in criticizing al-Rafi'i studies on poetry. Then, on which basis does he rely in his criticism? What is his definition to poetry? And who is the poet in his opinion ?

Key Words: Poetry, poet, poetic language, artistic statement, taste, al-Rafi'i.

تمهيد:

أكثر القراء- اليوم- يعرفون **الرافعي** الأديب المبدع صاحب الأسلوب القوي المحكم، وأكثر ما يعرفون عنه أنه صاحب وحي القلم، وأن له في النثر الفني دُررا أنيقة بلغة شعرية تتجاوز -في رأينا- حدود المرحلة التي عاشها، ويختلفون فيها بين معجب بأسلوبه ولغته، وبين نافرٍ من ذلك، وتلك هي سنة القراءة الحرة، وفيهم أيضا من يعرف الرافعي شاعرا، ولكن هناك زاوية بقيت مظلمة في حياة الرافعي الأدبية، وكل ما امتدّ إليها من إشعاعات باهتة ظلّت محتشمة لم تفِ بالغرض المرجو، ولم تستطع أن تحقق الرؤية الواضحة، وشاع أن ليس **للرافعي** يد في النّقد، وكل ما يعرفونه عنه- هنا- أنه كان هجّاءً يتعصّب لرأيه إلى حد التطرف، والذي أعتقده أن قراءنا معذورون، لأنه قد انطلت علينا تلك التهمة التي رُمي بها الرافعي، وهي أنه متشدّد عدو لكل جديد.

إن **الرافعي** تعمّق في التراث، وتشبّع من أساليب الأقدمين، وهيمن على اللغة هيمنة اقتدارٍ وكان يقرأ ما ينشر في الكتب والمجلات والصحف اليومية، من بحوث نقدية وأدبية، لكنه لم يطّلع اطلاعاً مباشراً على آدابِ الأُمم الأخرى، فاعتمد على ذكائه ومواهبِه وثقافته، وقام بتوليد المعاني والأفكار مما بين يديه، وتناول أشعار الكثير من الشعراء فقبل منها ما قبل، ورد منها ما رد. فعلى أي أساس أخذ وردّ؟ وإلى أين وصل؟. ثم ما هو مفهوم الشعر عنده؟ ومن هو الشاعر في رأيه؟ سنترك نصوص الرافعي هي التي تبين عن رؤاه النقدية، دون أن نحملها فوق طاقتها.

أ- فلسفة الشعر وصفات الشاعر:

يقول **مصطفى الجوزوفي** معرض حديثه عن آراء **الرافعي** في الشعر:" أمامنا أربع مقدمات تشكل قوام نظريته الشعرية في مرحلته الأولى الممتدة من 1901 إلى 1908... ولا شك أنه كان يتطور مع مقدماته فما كتبه أولا غير الذي كتبه آخرا".[1]

جاء في مقدمة الجزء الأول من الديوان " **الشعر موجود في كل نفس... ولوكان الشعر هذه الألفاظ الموزونة المقفاة لعددناه ضربا من قواعد الإعراب...**"[2]

فقبل كل شيء لا يرضى الرافعي للشعراء أن ينظموا نظماً، وإنما يطلب من الشاعر أن يخرج شعره من نفسه وأن يمزجه بعاطفته وأحاسيسه ويزينه بروح عصره، و"لوكان الشعر هذه الألفاظ الموزونة المقفاة لعددناه ضرباً من الإغراب". بل إنه ينعى على الذين لا يرون في الشعر إلا الزخرفة والأوزان وجفاف الروح والرونق.. ويرميهم بالجاهلية فإن كان الأولون سموا جاهلية لعبادة الأوثان فهؤلاء لعبادة الأوزان. والبراعة والفحولة أن يكون شعر الشاعر دفقة من إحساسه ومشاعره وأن يخرج من داخله، فجماع القول في براعة الشاعر أن يكون كلامه من قلبه، كلام يتميز بمقدرته الفائقة على التأثير في نفوس سامعيه، وذلك لما يتمتع به من صياغة فنية محكمة [3]، ويبدوهذا المعنى من قوله "**فالمراد بالشعر في رأينا التأثير في النفس لا غير، والفن كله إنما هوهذا التأثير، والاحتيال على رجة النفس له، واهتزازها بألفاظ الشعر ووزنه وإدارة معانيه...**"[4]

و**الرافعي** هنا يتفق مع طه حسين الذي يعرف الشعر بأنه الكلام المقيد بالوزن والقافية، والذي يقصد به إلى الجمال الفني.[5] ثم يشرح هذا الجمال الفني في مقالة **حافظ** و**شوقي** بأن المثل الأعلى للشعر هوهذا الكلام الموسيقي الذي يحقق الجمال الخالد في شكل يلائم ذوق العصر ويتصل بنفوس الناس، ويمكنهم من أن يذوقوا هذا الجمال حقا، فيأخذوا بنصيبهم النفسي من الخلود.[6]

فقيمة الفن الشعري في رأيهما لا تقاس بجودته أو رداءته، بقدر ما تقاس بمدى قدرته على التأثير في نفوس سامعيه. وأبرع الشعراء عند **الرافعي**" **من كان خاطره هدفا لكل نادرة، فربما عرضت للشاعر أحوال مما لا يعني غيره، فإذا علق بها فكره تمخضت عن بدائع من الشعر فجاءت بها كالمعجزات** – ويضيف – **ولا فضل للشاعر فيها الا أنه تنبه لها، ومن شد يده على هذا جاء بالنادر من حيث لا يتيسر لغيره، ولا يقدر هو عليه في كل حين** ".[7]

كما يدعوإلى تفرد الشاعر وذاتيته وألا يكون نسخة عن غيره "**فالشعراء كالمصابيح ما على أحد أن يتألق بنور غيره مادام في كل مصباح زينة، غير أن أكثر مصابيح اليوم كهربائية يستوي الجميع في الأخذ منها وفي الاستمداد من مصدر واحد.**"[8]. وفحول القدماء.. إنما نبغوا وذاع صيتهم لأن كل واحد منهم انفرد بمزية لا تجدها عند الآخر.. "**فمن سلك في الشعر ببصيرة المعري وكانت له أداة ابن الرومي وفيه غزل ابن أبي ربيعة، وصبابة الأحنف وطبع ابن برد وله اقتدار مسلم وأجنحة ديك الجن ورقة علي بن الجهم وفخر أبي فراس وحنين ابن زيدون وأنفة الرضي وخطرات ابن هانئ، وفي نفسه من**

فكاهة أبي دلامة، ولعينيه بصر ابن خفاجة بمحاسن الطبيعة، وبين جنبيه قلب أبي الطيب.. فقد استحق أن يكون شاعر دهره وصناجة عصره.."[9]

وهكذا نرى **الرافعي** – رحمه الله – مع الشعراء لا يرضيه منهم إلا الإتقان ونشدان الكمال الأدبي ما أمكن، وهي نفس نظرته مع الأدباء كما سيأتي لاحقا، كما أن هذا النص النقدي أو حكم **الرافعي** – إن شئت – على هؤلاء الشعراء يظهر بصر **الرافعي** بالشعر والشعراء. ولا يقال إن هؤلاء إنما صدر في ذكرهم عن السماع نزولا على حكم السن والحداثة، ذلك بأنه عمد إلى أخص سماتهم الفنية فوصفهم بها، ولعله أدرك هذه الشبهة فصادرها بهذا النهج، ولا شك أن عدوله عما عرف به أبو نواس من الغزل والخمريات، إلى فخره دون غيره، فيه الدلالة البالغة على سبر أغوار الرجل. [10]

ولا يصل الشاعر عند **الرافعي** إلى هذا الحد حتى يكون على رقة في الحس وطبع في النفس وصفاء في الذهن وانتباه في الخاطر، ولذا كان "**أول الشعر** – عنده– **اجتماع أسبابه وإنما يرجع ذلك إلى طبع صقلته الحكمة وفكر جلا صفحته البيان.. فما الشعر إلا لسان القلب إذا خاطب القلب وسفير النفس إذا ناجت النفس.. ولا خير في لسان غير بيِّن ولا سفير غير حكيم.."**.[11]

فالشعر عند الرافعي قائم على أسباب ثلاثة:

– الطبع المدرب والموهبة التي صقلتها الحكمة.

– القلب، أو قل العاطفة، فما الشعر إلا لمسات القلب.

– ولا يعطي هذين العنصرين حقهما عنده، إلا فكر جلا صفحته البيان، وهو شرط أول لا يكون الشاعر شاعراً إلا به.. فلا خير في سفير غير حكيم، ولا لسان غير مبين.

فالأسس الثلاثة للشعر هي: الطبع والفكر والقلب يجليها الشكل البياني، وهكذا يبدو القلب على صلة بالطبع الصقيل، وتبدو النفس على صلة بالفكر المبين، فبالأول تتصل رقة الحس وطبع النفس، وبالثاني صفاء الذهن وانتباه الخاطر وسائر الأسباب التي تجعل من الشاعر إنسانا كاملا على الأقل في فكره. [12] ويزيد الأمر وضوحا وصف **الرافعي** للشعر بأنه: " **بقية من منطق الإنسان اختبأت في زاوية من النفس، فمازالت بها الحواس حتى وزنتها على ضربات القلب وأخرجتها بعد ذلك ألحانا بغير إيقاع** "[13]، وهنا يؤكد على صلة النفس بالعقل، وصلة القلب بالأحاسيس، وبأن الأحاسيس تتعاون كلها ساعة النظم.[14]

ولا يغفل **الرافعي** علاقة الشعر بالحياة الموضوعية والصدق الأدبي وكذلك الخيال، وهو روح الشعر "**وليس بشاعر من إذا أنشدك لم تحسب أن سمعه مخبوء في فؤادك وأن عينيك تنظران في شغافه.. فإذا تغزل أضحكك إن شاء وأبكاك إن شاء.. وإذا تحمس فزعت لمساقط رأسك وإذا وصف لك شيئاً هممت أن تلمسه حتى إذا جئته لم تجده شيئاً، وإذا عتب عليك جعل الذنب لك ألزم من ظلك.. وإذا نثر كنانته رأيت من يرميه صريعاً لا أثر فيه لمدية ولا قذيفة،**

وإذا مدح حسبت الدنيا تجاوبه وإذا رثى خفت على شعره أن يجري دموعاً.. وإذا وعظ استوقفت الناس كلمته وزادتهم خشوعاً.." [15].

ويشبه من تكلف الشعر على غير طبع فيه " **بالأعمى الذي يتناول الأشياء ليقرها في مواضعها، وربما وضع الشيء الواحد في موضعين أو مواضع وهولا يدري** ".[16]

ويقسم الشعر إلى أربعة أبيات: "**بيت يستحسن، وبيت يسير، وبيت يندر، وبيت يجن به جنونا، وماعدا ذلك فكالشجرة التي نفض ثمرها وجني زهرها لا يرغب فيها إلا محتطب.**[17]

وخلاصة جهود **الرافعي** في تحديده ماهية الشعر– في مرحلته الأولى– أنه يجعله مرادفا للأدب وقد رأيناه في أكثر تعريفاته لا يبعد كثيرا عن هذا الإطار، فهو يقول:" **الشعر معنى لما تشعر به النفس، فهومن خواطر القلب، إذا أفاض عليه الحس من نوره** انعكس **على الخيال، فانطبعت فيه معاني الأشياء كما تنطبع الصور في المرآة** ".[18]

لقد كان **الرافعي** ينظر إلى الشعر كل مرة من زاوية خاصة، فخطرة ينظر إلى المعنى المجازي للشعر، وخطرة في طبيعته الخيالية، وخطرة في تأثيره، وخطرة في عناصره، وخطرة في الحوافز إليه، ومرة في طبيعته الأدبية العامة.[19]

أما المرحلة الثانية من 1912 حتى أواخر حياة **الرافعي**، حين كان يكتب المقالات التي أدرجها في كتابه وحي القلم، وقد تناول الشعر والشاعر وبدا ميالا إلى التجديد. [20]

حين يبحث **الرافعي** عن موقع الشعر يجده وراء النفس، ويجد النفس والغيب وراء الطبيعة فالشعر إذن وراء الغيب ؟ " **الشعر وراء النفس والنفس وراء الطبيعة والطبيعة من ورائها الغيب.. وما الشعر إلا أول المعاني المبهمة، والدرجة الأولى من سلم السماء الذاهبة إلى عرش الله، وهو كذلك أول ما في الإنسان من الإنسانية** ".[21]

فهو يفلسف الشعر ويراه تفاعلا كونيا مع الإنسان السامي، والشعر العالي هو التقاء نفس سامية بحقيقة سامية. يقول " **فبالشعر تتكلم الطبيعة في النفس وتتكلم النفس للحقيقة... ومتى نزلت الحقائق في الشعر وجب أن تكون موزونة في شكلها كوزنه... وإذا قررنا للشعر هذا المعنى عرفنا أنه فن النفس الكبيرة الحساسة الملهمة حين تتناول الوجود من فوق وجوده في لطف روحاني ظاهر في المعنى واللغة والأداء.**"[22]

كلام **الرافعي** هذا – في رأي **د. الجوزو**– لا يحكمه منطق واضح، يقول: وان كنا نظن أنه يعني بالحقائق الجمال والحب واللذة والألم التي تمتزج جميعا في نفس الشاعر فيكون الشعر، إما ناقصا إذا عبر عن اللذات، وإما كاملا إذا عبر عن الآلام. [23]

و**الرافعي** في حديثه عن الشعر يتناول الشاعر محددا صفاته " **الشاعر في رأينا هو ذاك الذي يرى الطبيعة كلها بعينين لهما عشق خاص وفيهما غزل على حدة، وقد خُلقتا مُهيأتين لرؤية السحر الذي لا يُرى إلا بهما، بل الذي لا وجود له في الطبيعة الحية لولا عينا الشاعر، كما لا وجود له في الجمال الحيّ لولا عينا العاشق**".()[24]، **والشاعر الملهم –** عنده– " **يرى كلام الطبيعة بأسره مترجما إلى لغة عينيه.**"[25] هذا الربط بين الشاعر والعاشق يذكّرنا ببيتَيْ شكسبير الشهيرين: المجنون والعاشق والشاعر / جميعهم في الخيال سواء.[26]

بل إن **الرافعي** نفسه ليقرن بين العاشق والشاعر العبقري ويرى أنهما صورتان لحالة واحدة، فكلاهما قانونه من طبيعته وحدها، إذ تتخذ حياته شكلها من ذوقه وحده فلا يتبع طريقة أحد، بل هو طريقة نفسه. وكلاهما عنده شيء من الغرابة، وكلاهما متصل بقوة غيبية وراء ما يُرى وما يُحسّ تجعل نظرته في الأشياء خاضعة لقانون "**النظرة العاشقة في العينين الساحرتين المعشوقتين، فإذا مدّ عينيه في شيءٍ جميل فهناك سؤال وجوابه، ووحي وترجمته، ومرور من يقظةٍ إلى حلم، وانتقال من حقيقة إلى خيال**"[27]، ويواصل موضحا صفات الشاعر والتي منها أيضا – في رأيه– قدرته على الاندماج في الأشياء والأفكار والموضوع الذي يعالجه، هذه القدرة ترجع إلى موهبة الشاعر من جهة، وفلسفته الشعرية من جهة ثانية، فإذا تمكّن من التلبّس بالأشياء إلى حدّ التماهي معها جاء شعره أصدق وأعمق وأشمل، يحدثنا الرافعي قائلاً: "**الشاعر الحقيق بهذا الاسم يضع نفسه في مكان ما يعانيه من الأشياء وما يتعاطى وصفَه منها،**

ثم يفكر بعقله على أنه عقل هذا الشيء مضافاً إليه الإنسانية العالية.. ومن ثم فلا ريب أن نفس الشاعر العظيم تكاد تكون حاسّة من حواسّ الكون"[28]، وصفة الاندماج هذه من الصفات التي لا يفتأ **الرافعي** يرددها، واسمع إليه حين يعلل تفوق **حافظ إبراهيم** في موضع الرثاء يعزوه إليها. " **إن الحقيقة تتبرّج له في هذه العظائم خاصة ليرى منها ما لا يراه غيره، وهو يتّحد بالعظيم الذي يرثيه فيجيد فيمن يعرفه إجادة منقطعة النظير... وأحسبه يسأل روح العظيم الذي يصفه أو يرثيه: أين المعنى الذي فيه حقيقتك؟ وأين الحقيقة التي فيها معناك؟**".[29]

إن قدرة الشاعر على الاتحاد بأجزاء الكون وتجاوز ذاته إلى غيرها لرؤية ما لا يراه الآخرون، وإدراك ما لا يدركونه هي السر العظيم لنبوغ الشاعر، وحول جاذبية الأسرار تتمحور صفة أخرى من صفات الشاعر وهي النفاذ إلى الأعماق والوصول إلى سرّيّة الكون وسحر خفاياه، فلا تكتمل شاعريته بغير الاطلاع على الأسرار: أسرار الطبيعة والإنسانية واللغة والأشياء جميعاً، فكثيراً ما يبحث الشاعر عن معنى في أشياء تبدو بلا معنى في نظر الآخرين، لأنهم يقفون عند القشور والسطوح ولا يتغلغلون إلى الأغوار والأسرار كما يتغلغل الشاعر حين يتصل بسرّ الحياة ليكتشف معانيها [30].

والشعر نفسه– عند الرافعي– لا يتصل بالأشياء نفسها من حيث هي مظاهر، وإنما يتصل بأسرارها كما يقول: "**الشعر في أسرار الأشياء لا في الأشياء ذاتها**"[31]، ويتابع موضحا "**والشاعر لم يكن شاعراً بكونه رجلاً من**

الناس وحيّاً من الأحياء وعمراً من الحوادث المؤرخة ولكن بموضوعه من أسرار الحياة وصلة نفسه بها وقدرة هذه النفس على أن تنفذ إلى حقائق الطبيعة في كائناتها عامة وفي إنسانها خاصة.. ثم بقدرة مثل هذه في النفاذ إلى أسرار اللغة الشعرية" [32]. وهوهنا يتفق أيضا مع العقاد أحد رواد حركة التجديد في الشعر العربي الحديث عندما يهاجم شوقي قائلا: اعلم أيها الشاعر العظيم، أن الشاعر من يشعر بجوهر الأشياء لا من يعددها ويحصي أشكالها وألوانها [33]

ب- عناصر الشعر:

من المعروف والمتداول أن للشعر عناصر يقوم عليها، كالفكرة والصورة والخيال والشعور والألفاظ والتراكيب والموسيقى والقافية والوزن وغيرها، وأن بعض هذه العناصر يلقى العناية والاهتمام من إحدى المدارس الشعرية، ثم تأتي مدرسة أخرى فتهتم بغيرها من العناصر وتمنحها الأولوية، أما عند الرافعي فمن السهل أن نقف عند العناصر التي أولاها اهتمامه، وأن نستعرض رأيه فيها. ومن بينها:

1 – الأفكار وطريقة دخولها إلى ساحة الشعر:

فهو يعلن أن الشعر –غالباً– يحتوي على أفكار، أولا يكاد يخلومنها، لكن نوعية الأفكار وطريقة عرضها في الشعر تختلفان عما هي الحال في العلم أو الفلسفة؛ يتناول الشاعر جمال الفكرة الهاجع في أعماقها، ويكشف عن سرها الخبيء في خفاياها، ويبين جوانبها اللطيفة. يقول: "**وليست الفكرة شعراً إذا جاءت كما هي في العلم والفلسفة، فهي في ذلك علم وفلسفة، وإنما الشعر في تصوير**

خصائص الجمال الكامنة في هذه الفكرة على دقة ولطافة، كما تتحول في ذهن الشاعر الذي يلونها بعمل نفسه فيها، ويتناولها من ناحية أسرارها"[34]. ومن جهة ثانية لا يقدم الشاعر الأفكار في شعره من أجل الفائدة والتعليم ونشر الأخبار، ولا يقررها في الذهن تقريراً، لأنه يخاطب ذوق القارئ ويحرك خياله ويثير وجدانه فهو يقول: "**الشاعر العظيم لا يرسل الأفكار لإيجاد العلم في نفس قارئها وحسب، وإنما هو يصنعها ويحذو الكلام فيها بعضه على بعض، ويتصرف بها ذلك التصرف ليوجد بها العلم والذوق معاً، وعبقرية الأدب لا تكون في تقرير الأفكار تقريراً علمياً بحتاً،...بل في إرسالها في أسلوبها البياني الجميل**"[35]. **فالرافعي** يفرق بين العلم والشعر بالذوق والبيان ويدعوإلى تشذيب الحقائق والأفكار وقولبتها بما يناسب الشعر وغاياته لتبدوكانها مفصلة تفصيلاً يناسب الموسيقى والوزن والخيال، فليست الحقائق بحدّ ذاتها شعراً، وإنما الشعر في تصويرها والإحساس بها في شكل حي تلبسه الحقيقة من النفس، وإن مادة الشعر شيء، وروح الشعر شيء آخر.

2- اللغة الشعرية:

وهي أيضا من العناصر التي تعرض لها **الرافعي** بشيء من التفصيل فهو يشير إلى ضرورة الاختيار في ألفاظ اللغة لتركيبها في نسيج شعري، لأن الشعر- في رأيه- تأليف موسيقي قبل أن يكون تأليفاً لغوياً، فاللغة مبذولة للجميع، لكن الشعر لغة أخرى داخل هذه اللغة، وعلى الشاعر أن يراعي جوانب متعددة ليتمّ له انتقاء الكلمة المناسبة شعرياً. يقول: "**ولو علموا لعلموا أن ألفاظ الشعر هي ألفاظ**

من الكلام، يضَع الشعر فيها الكلامَ والموسيقى معاً، فتخرج بذلك من طبيعة اللغة القائمة على تأدية المعنى بالدلالة وحدها إلى طبيعة لغة خاصة أرقى منها تؤدي المعنى بالدلالة والنغم والذوق، فكل كلمة في الشعر تجتلب لمعناها من تركيبه، ثم لموضعها من نسقه، ثم لجرسها في ألحانه، وذلك كله هو الذي يجعل للكلمة لونها المعنوي في جملة التصوير بالشعر، وما يمر الشاعر العظيم بلفظة من اللغة إلا وهي كأنها تكلمه تقول: دعني أو خذني – ويضيف– **لابد للمعاني الشعرية من جواللغة البيانية، فالبيان إنما هو أشعة معاني القصيدة**".[36] يعلق الأستاذ **إسماعيل دندي** على هذا العرض لوظيفة اللغة الشعرية بأنه يدل على نضج وسبق في آن واحد من الرافعي:" فما رأيت أحداً من معاصريه تحدث عن لغة الشعر بمثل هذا الوضوح والتبصّر". [37] وقد دعم رأيه السابق بدعوته إلى التناسق والتلاحم بين الكلمة والكلمة حتى تبدو الواحدة منجذبة إلى الأخرى" **وكثيرا ما يخيل إلي حين أتأمل بلاغة اللفظ الرشيق إلى جانب لفظ جميل في شعر محكم السبك، أن هذه الكلمة من هذه الكلمة كحب رجل متأنق يتقرب من حب امرأة جميلة** –ويحذّر من التنافر بين الكلمتين فتبدوان– **كشرطي يأخذ بتلابيب مجرم**"[38].

إن ذوق الشاعر وخبرته يساعدانه على اختيار الكلمة لتقع موقعها الملائم، فلكل لفظة وضعها سواء كانت رفيعة أو وضيعة، رقيقة أو جزلة، لذلك نراه يقرر: "**أن للألفاظ ما يشبه الألوان فليست كلها زرقاء ولا صفراء ولا حمراء، ورب لفظة رقيقة تقع ضعيفة في موضع فيكون ضعفها في موضعها ذاك، هوكل بلاغتها**

وقوتها، كفترة السكوت بين أنغام الموسيقى، هي في نفسها صمت لا قيمة له، ولكنها في موضعها بين الأنغام نغم آخر ذو تأثير بسكونه لا برنينه، وهذا من روح الفن في الأسلوب"[39]. فاللغة الشعرية عند **الرافعي** تقبض على الحالة الشعورية في ديمومتها، وفي حركيتها وفي عمقها، وهي بكر بخلاف اللغة المعيارية التي تسرد الحالة في سكونيتها باهتة باردة في حركة أفقية.[40]

و**الرافعي** يعطي للغة الشعرية أبعادا حداثية، وان ألصق به خصومه سمة الإتباع والمحافظة، لكن واقع الحال يثبت جدارته الوراثية في تجديد اللغة الشعرية، وتوجز مهمته كشاعر مجدد يرفض النموذج السلفي في الاستخدام اللغوي، وهنا يكمن الجانب المتقدم في ريادته الشعرية. [41] إذ لم تعد اللغة الشعرية عنده بسيطة يرتبط فيها اللفظ بالمعنى ارتباطا آليا، بل أصبحت مرتبطة بالغموض تصرح ولا توضح. [42] بمعنى أنها تقول أكثر مما تقول، وهذا ما دعا إليه **الرافعي** عبر تنظيراته محاولا ضبط مفهوم اللغة الشعرية انطلاقا مما يختلج في النفس البشرية "**وكلمات الحب كلمات يتغير عليها الحس، فتفهم على أوجه مختلفة وتشاكلها معان كثيرة وكأن طريقة قولها تخلق فهمها، فما هي من عام اللغة بل هي من خاصها، إذ اللغة بين أهلها جميعا وهذه بين اثنين خاصة، واللغة ألفاظ مفسرة بما تلبسه، وهذه تفسر بما يلبسها، واللغة تشير إلى الموجود إذ لا يراد بها إلا التعبير للفهم، وهذه تشير إلى غير الموجود أيضا إذ تريد مع الفهم العاطفة ولابد أن يعطى فيها القلب إرادة.**"[43] **فالرافعي** هنا يربط بين لغة الشعر ولغة الحب كما يراها ويحددها الآن شعراء الحداثة في الوطن

العربي والعالم [44]. ولعل الخليل الفراهيدي أول لغوي أدرك دور الشاعر في كشف النقاب عن جماليات اللغة وشق الستور عن أوجه عبقريتها فعد الشعراء أمراء الكلام يحتج بهم عليه ولا يحتج عليهم به. [45] فالشاعر المبدع يؤثر في اللغة ويكون سببا في نمائها.

3-الوزن والقافية:

وهما من عناصر الشعر التي وقف عندها **الرافعي** أيضاً، إذ يراهما من خصوصيات الشعر العربي، لكن الشاعر المبدع لا يأخذهما بشكل عشوائي، وإنما يدرك أن لكل غرض ولكل حالة ما يناسبهما من قوافٍ وأوزان، واختيار الوزن والقافية شبيه في دقته وصعوبته باختيار اللفظة: "**وكما يهملون اختيار اللفظ والقافية، يتسهلون في اختيار الوزن الملائم لموسيقية الموضوع، فإن من الأوزان ما يستمر في غرض من المعاني ولا يستمر في غيره، كما أن من القوافي ما يطرد في موضوع ولا يطرد في سواه، وإنما الوزن من الكلام كزيادة اللحن على الصوت، يراد منه إضافة صناعة من طرب النفس إلى صناعة من طرب الفكر، فالذين يهملون كل ذلك لا يدركون شيئاً من فلسفة الشعر، ولا يعلمون أنهم إنما يفسدون أقوى الطبيعتين في صناعته، إذ المعنى قد يأتي نثراً فلا ينقصه ذلك عن الشعر من حيث هو معنى، بل ربما زاده النثر إحكاماً وتفصيلاً وقوة بما يتهيأ فيه من البسط والشرح والتعليل، ولكنه في الشعر يأتي غناء، وهذا ما لا يستطيعه النثر بحال من الأحوال**"[46].

إن حرص **الرافعي** على الوزن والقافية وإلحاحه عليهما يدفعان بنا دفعاً نحو آرائه المتعلقة بالشعر المنثور وما يسمى اليوم (قصيدة النثر) فمن المعروف أن هذا الشعر بدأ مع **جبران** و**الريحاني**، وكان **الرافعي** من المسهمين فيه بنصيب وافر، لكن المسألة تتعلق قبل كل شيء، بالتسمية ذاتها فلا **جبران** ولا **الرافعي** أطلقا على شعرهما المنثور اسم الشعر، بل احتفظا له باسم النثر، وعندما أرادا الشعر كتباه موزوناً مقفى، لأن النثر مهما بلغ من فنيّته –في رأيهما– يظل نثراً. وقد ذهب الدكتور **أحمد سليمان الأحمد** مذهبهما وأيدهما في قوله: " هناك كتب أخرى غير نهج البلاغة، مثل السحاب الأحمر، وأوراق الورد لمصطفى صادق الرافعي، ورمل وزبد لجبران خليل جبران، وعشرات غيرها، يمكن لنا أن نكتبها بالأشكال الشعرية ولكن لن يرضى عنها مؤلفوها إذا صدرناها بدعوى كونها شعراً ". [47] ومن هنا، فإن **الرافعي** يرفض التسمية ويسخر من أصحابها إذ يقول: "**نشأ في أيامنا ما يسمونه (الشعر المنثور) وهي تسمية تدل على جهل واضعها ومن يرضاها لنفسه، فليس يضيق النثر بالمعاني الشعرية، ولا هو خلا منها في تاريخ الأدب، ولكن سرّ هذه التسمية أن الشعر العربي صناعة موسيقية دقيقة يظهر فيها الاختلال لأوهى علة ولأَيْسَر سبب، ولا يوفق إلى سبب المعاني فيها إلا من أمده الله بأصح طبع وأسلم ذوق وأفصح بيان... فمن قال (الشعر المنثور) فاعلم أن معناه عجز الكاتب عن الشعر من ناحية وادعاؤه من ناحية أخرى**"[48]. وربما رأي **الرافعي** هذا قد يغيظ الكثير من المتحمسين لقصيدة النثر، ولكن له كثير من المؤيدين من أمثال الدكتور **أحمد سليمان الأحمد** الذي يرى أن

قصيدة النثر حتى لوكانت جيدة، ستبقى نثراً، وفصيلتها غير فصيلة الشعر: " إنما هي مختلفة اختلافاً نوعياً عن الشعر، فهي من فصيلة أخرى ولا مساس لها بالشعر، ولا قربى بينهما، وما نرضى للفن الأصيل نسباً هجيناً " [49].

ج- بين الشعر والنثر:

نظرا لقرب الصلة بين الشعر والنثر في رأي **الرافعي**، نجده يضع ميزانا لنقد الشعر وهو رده إلى النثر يقول: "**أما ميزانه فاعمد إلى ما تريد نقده فرده إلى النثر، فإن استطعت حذف شيء منه لا ينقص من معناه، أوكان في نثره أكمل منه منظوما فذلك هو الهذر بعينه، أو نوع منه، ولن يكون الشعر شعرا حتى تجد الكلمة من مطلعها لمقطعها مفرغة في قالب واحد من الإجادة، وتلك مقلدات الشعراء** ".[50] ويتابع **الرافعي** هذا الرأي بوضوح أكبر، في كلام شعري **رافعي** فيؤكد قائلا:" **والذي أراه أن النظم لو مد جناحيه وحلق في جوهذه اللغة، ثم ضمهما لما وقع إلا في عش النثر... ولن تجد لمنثور القول بهجة إلا إذا صدح فيه هذا الطائر المغرد، بل لوكان انثر ملكا لكان الشعر تاجه، ولو استضاء لما كان غيره سراجه**".[51] و**الرافعي** في هذا يعود إلى عدد من الآراء القديمة التي يوحي بعضها، ويصرح بعضها الآخر أن أصل الشعر نثر-كرأي **ابن طباطبا**، و**حازم القرطاجني**- وإن مادة النثر يتم جمالها بالنظم.

د- نقد الشعر:

نحاول هنا أن نستطلع طريقة **الرافعي** في نقد الشعر كما يقدمها لنا في كتاباته، وهذا حتى نحتكم إليها عند عرضنا لنماذج من نقده التطبيقي في الفصل

الثالث. يقول: "**وطريقتنا في نقد الشعر تقوم على ركنين: البحث في موهبة الشاعر، وهذا يتناول نفسه وإلهامه وحوادثه، والبحث في فنه البياني وهو يتناول ألفاظه وسبكه وطريقته**".[52] ويفصل قليلاً في موضع آخر ملخصا مذهبه في نقد الشعر فيضيف: "**وإذا أردت أن أكتب عن شعر شاعر، كان دأبي أن أقرأه متثبتاً، أتصفح عليه في الحرف والكلمة، إلى البيت والقصيدة، إلى الطريقة والنهج، إلى ما وراء الكلام من بواعث النفس الشاعرة ودوافع الحياة فيها.. وبأيّها يتسبب إلى الإلهام، ثم كيف حدة قريحته وذكاء فكره، والملكة النفسية البيانية فيه، ثم أزيد عليه انتقاده بما كنت أصنعه أنا لوأني عالجت هذا الغرض أو تناولت هذا المعنى**".[53]

يظهر أن **الرافعي** يحاول أن يؤسس لمنهج – يسميه هو طريقة– في نقد الشعر يتلخص في أن هذا العمل يقوم على ركنين هما موهبة الشاعر وفنه البياني:

الأول: البحث في موهبة الشاعر: وهنا يتناول نفس الشاعر وحوادثه وإبداعه وأمثل الطرق في نقد موهبة الشاعر هي:" **إدراكها بالروح الشعرية القوية من ناحية إحساسها والنفاذ إلى بصيرتها واكتناه مقادير الإلهام فيها، وتأمل آثارها في الجمال، وتدبر طبيعتها الموسيقية في الحس والفهم والتعبير...**"[54]

ولهذا ألح كثيرا على ضرورة ألا يتصدى لنقد الشعر إلا شاعر، أومن كانت له روح شعرية أقوى من روح الشاعر، ولا بد له من البحث في الأغراض التي نظم فيها الشاعر، وما يصله بها من أمور عيشه وأحوال زمنه، وكيف

تناولها، وماذا أبدع، وما هي منزلة شعره في لغته وآدابها، وكيف هي فلسفته وإلهامه.

وعلى قدر موهبة الشاعر يكون مقداره، ولا يتوقف الناقد على ذلك إلا بالاسترسال إلى ما وراء الشعر من بواعثه، وتموجت به روح الشاعر عند عمله، وهذا كله " **لا يحسه الناقد إن لم يكن شاعرا في قوة من ينقده أو أقوى منه طبيعة شعر**". (55)

ومن علامات النقد المبدع المحكم " **إذا قرأته يخيل إليك أن الشعر يعرض نفسه عليك عرضا، ويبين حالته في ذهن الشاعر وكيف انتزعه من الحياة، وما وقع فيه من قدر الإلهام، وما أصابه من تأثير الإنسان، وما اتفق له من حظ الطبيعة والأشياء**". (56)

الثاني: البحث في فنه البياني: وقد سبقت الإشارة إلى ذلك في مبحث البيان واللغة الشعرية، ولا بأس أن نورد ما يريده **الرافعي** من الشاعر وسبكه وطريقته في القول.

يقول: "**فإذا لم يستطع الشاعر أن يأتي في نظمه بالروي المونق والنسيج المتلائم والحبك المستوي والمعاني الجيدة... ورأيته يأتي بالشعر الغليظ والألفاظ المستوخمة الباردة والقافية القلقة النافرة، والمجازات المتفاوتة المضطربة والاستعارات البعيدة الممسوخة، فاعلم أنه رجل قد باعده الله من الشعر وابتلاه مع ذلك بزيغ الطبيعة**". (57)

فالرافعي يضع معايير شكلية ينبغي للناقد الانتباه إليها، والبحث فيها إلى جانب البحث في موهبة الشاعر ومنها:

- اللفظ ومدى انسجامه مع المعنى.
- التراكيب وتساوقها مع الموسيقى.
- الصناعة البيانية وهي روح الحسن في الشعر.
- القافية والوزن الملائم لموسيقية الموضوع.
- التصوير والاحتفال بالمجاز والعناية به.

ولا يلبث **الرافعي** أن يرسم لنا منهجه بوضوح أكبر عندما يتناول شاعرا بالدراسة والنقد، يقول:" **وأنا حين أكتب عن شاعر لا يكون همي إلا البحث في طريقة ابتداعه لمعانيه، وكيف ألمّ وكيف لحظ، وكيف كان المعنى منبهة له، وهل أبدع أم قلد، وهل هو شعر بالمعنى شعورا فخالط نفسه وجاء منها، أم هو نقله نقلا فجاء من الكتب، وهل يتسع في الفكرة الفلسفية لمعانيه، وهل يدقق النظرة في أسرار الأشياء التي يسبح فيها المجهول الشعري...**"[58]

والشعراء عند **الرافعي** اثنان: شاعر ومتشاعر، ويجعل لهما ميزانا يميز بينهما، أما الشاعر فعنده من" **تأخذ من طريقته ومجموع شعره أنه ما نظم إلا ليثبت أنه قد وضع شعرا**"، وأما المتشاعر فتأخذ من طريقته وشعره أنه " **نظم إنما ليثبت أنه قرأ شعرا** ".[59]

فالأول بقوته وعبقريته يجعل من الشعر خادما له ليكون هو شاعره، وأما الثاني المتشاعر فبضعفه وتلفيقه يخدم الشعر ليكون شاعرا.

ويخلص **الرافعي** إلى أن ناقد الشعر هو الشاعر نفسه ولكن في" **وضع أتم وأوفى، وحالة أبين وأبصر، أي كأنه الشاعر نفسه منقحا تاما بغير ضعف ولا نقص** ".[60]

ثم يصور حالة الشعر العربي في عصره، وكيف أصبح محتاجا إلى من يعلم القارئ كيف يتذوقه ويتبين مواطن الحسن فيه، وهذا عمل لا يتأتى إلا لمن كانت له قوة التمييز. هذه القوة هي التي يعطيها الناقد لقرائه " **والشعر فكر وقراءته فكر آخر... فلا بد للفكرين من صلة فكرية هي كتابة الناقد** ".[61]

وبعد هذا ننتهي إلى ما قاله **الرافعي** أيضا: "**إذا كانَ من نَقْدِ الشِّعر عِلمٌ؛ فهو علمُ تشْريحِ الأَفكَار، وإذا كان منهُ فنٌّ؛ فهو فنُّ درسِ العاطفة؛ وإذا كانَ مِنهُ صِناعة فَهو صِنَاعة إظهار الجمال البياني في اللغة** ".[62] وما أعجب هذا الكلام وما أدقه.

نتائج البحث:

لقد حاول بحثنا هذا أن يقف على تلك الإسهامات النقدية التي قدّمها **مصطفى صادق الرافعي** في تلك الفترة من تاريخ الأدب، وسنورد خلاصة بحثنا على شكل نتائج:

– **للرافعي** ثقافة عربية خالصة تغلب عليها السّمة الإسلامية، وتتحكم فيها النزعة الدينية وهي ثقافة–بإطارها هذا– خلقت عنده نظرية المزج بين اللغة والدين، فكل من يحاول الاعتداء على اللغة أو الغضّ من شأنها أو النيل من قدرها، فإنما هو يحارب الإسلام.

– وله في النقد بحوث قيّمة، وتحاليل تدل على دقّة نظره وحسن بيانه، ومقدرته على غربلة الأمور وجلاء حقائقها، وهولم يهدف إلى تأسيس قواعد نظرية، بقدر ما طمح إلى تأسيس نماذج نظرية، وبذلك استطاع أن يمهد – بحسه الفطري– لفن الكتابة المعاصرة.

– من خلال نظراته وآرائه في الشعر والأدب، تبيّن لنا أن **الرافعي** يخلط في حديثه بين الشاعر والأديب، فهو حين يعرض لماهية الأدب أو الأديب يتّجه حديثه إلى الشعر والشاعر، وكأن نقد الأدب – عنده – نقد الشعر فقط.

الهوامش:

1– الجوزو مصطفى– الرافعي رائد الرمزية العربية المطلة على السوريالية – دار الأندلس– بيروت–لبنان– ط 1–1405هـ/1985م – ص 207.

2– الرافعي – الديوان – المطبعة العمومية– القاهرة– ط1– 1321هـ/1903م– ج1 – ص.05

3– عثمان موافي – قضايا الشعر والنثر في النقد العربي الحديث – دار المعرفة– الإسكندرية – 2000– ص 16.

4– الرافعي – وحي القلم – المكتبة العصرية – بيروت – د ط–2002م – ج3– ص 228.

5– طه حسين – في الأدب الجاهلي – مطبعة فاروق – القاهرة – ط 3– 1352هـ/1933م – ص.330

6– عثمان موافي – السابق – ص 15.

7– الرافعي – الديوان – ج1– ص 07.

8– الرافعي – الديوان – مطبعة الجامعة – الإسكندرية – 1322هـ/1904م – ج2– ص 05.

9 – الرافعي – الديوان – ج1 – ص 08.

10- حلمي مرزوق – تطور النقد والتفكير الأدبي الحديث – دار النهضة العربية- بيروت -1983 م- ص361.

11- الرافعي – الديوان – ج1- ص 05.

12 - الجوزو – السابق – ص 210.

13- الرافعي – السابق – ص 05.

14- الجوزو – السابق – ص 210.

15- الرافعي – السابق – ص 08.

16– الرافعي – نفسه – ص 08.

17 – الرافعي – نفسه – ص 09.

18- الرافعي – الديوان – ج2 – ص 03.

19- الجوزو- السابق – ص 213.

20– الجوزو- نفسه – ص 234.

21- الرافعي – رسائل الأحزان – دار الكتاب العربي- بيروت- ط 1- 1424هـ/2004م ص 43.

22– ينظر: الرافعي – وحي القلم – ج3- ص 224/222.

23- الجوزو- السابق – ص 235.

24 – الرافعي – السابق– ص.222

25– الرافعي – أوراق الورد – دار الكتاب العربي – بيروت – ط 1– 1424هـ/2004م ص 05.

26– محمد إسماعيل دندي – مقالة (الرافعي ناقدا) مجلة الموقف الأدبي– دمشق– العدد315– يوليو 1997ص 64.

27– الرافعي – وحي القلم – ج3 – ص 215.

28– الرافعي– نفسه – ص 223.

29– الرافعي – نفسه– ص 265.

30– محمد إسماعيل دندي – السابق– ص65.

31– الرافعي – السابق – ص222.

32– الرافعي – نفسه – ص 226.

33– عثمان موافي– السابق – ص20 (نقلا عن الديوان للعقاد والمازني ص 185).

34– الرافعي– السابق– ص 223.

35– الرافعي – نفسه– ص223.

36– الرافعي – نفسه– ص 230.

37– محمد إسماعيل دندي – السابق – ص 65.

38- الرافعي – السابق – ص 230.

39- الرافعي – نفسه – ص 264.

40- محمد بلحسين – (الرافعي وميلاد لغة جديدة)- مجلة المعيار- منشورات المركز الجامعي- تيسمسيلت-العدد01- جوان 2010 – ص 130.

41- عبد العزيز المقالح – عمالقة عند مطلع القرن – دار الآداب -بيروت – دط-دت – ص.173

42- محمد بلحسين – السابق – ص 129.

43- الرافعي – أوراق الورد- ص 139/138.

44- المقالح – السابق – ص 175.

45- نعمة رحيم العزاوي- فصول في اللغة والنقد- المكتبة العصرية- بغداد- ط1- 1425هـ/2004م – ص 189.

46- الرافعي – وحي القلم – ج3- ص 231.

47- أحمد سليمان الأحمد - الشعر الحديث بين التقليد والتجديد- النووي- دمشق-دط -دت – ص 141.

48- ينظر: الرافعي – السابق- ص-310/309.

49- أحمد سليمان الأحمد – السابق – ص 145.

50- الرافعي – الديوان – ج1- ص 09.

51– الرافعي – نفسه – ص 10.

52– الرافعي – نفسه– ص 228.

53– ينظر: الرافعي– نفسه – ص343.

54– الرافعي – نفسه – ص 232.

55– الرافعي– نفسه – ص 227.

56– الرافعي – نفسه – ص 228.

57– الرافعي – نفسه – ص 231.

58– الرافعي – وحي القلم – ج3 – ص 286.

59– ينظر: الرافعي – نفسه – ص 344.

60– الرافعي – نفسه – ص 228.

61– الرافعي – نفسه – ص 228.

62– الرافعي – نفسه– ص 233.